« ثائر محترف » وأزمة الجيل العربي

بقلم محمد حيدر

الاثار الادبية العظيمة ، لا يمكن الالمام بها بصورة تامة ، بل تظل بعض جوانبها خفية ، وعرضة لتاويلات مختلفة ، وذلك لخصوبتها من جهة ، ولكنها تثير من المشكلات اكثر مما تتضمنه بالذات . وينطبق هذا على رواية « ثائر محترف » لذلك نرى من الطبيعي ان نشير ، الى ان مقالنا هذا لم يمسك كلية بالرواية . فهو وجهة نظر اكثر مما هو دراسة شاملة . وكون الرواية لا تتكشف تماما للقاريء ، ناجم عن عمق شخصياتها التي تمتنع على الاحكام النهائية ، وتستعصي على الفهم السطحي ، والسريع . فهي ليست مما يفسر بمعطياته الخارجية ، او بالفعل الذي تقوم به . ذلك ان الشخصية الانسانية عند مطاع (وفي كل رواياته وقصصه) اعمق من ان تؤول بسلوكها العلني ، او ان يتمكن القاريء او الناقد كشف اغوارها الحقيقية . انها تظل مغلفة بنوع من الغموض (لا التعقيد) يجعلها بنجوة عن الكشف النهائي.

والقاريء ـ كمثال على ذلك ـ اذ يشعر بحرية الشخصية التامة عند مطاع ، فانه ليشعر بالمقابل ، وبطريقة غير مباشرة بأن هذه الشخصية محكومة بقدر خفي ، هو العنصر الغيبي ، السري ، في الشخصية . هذا العنصر الذي يحفظ لها قيمتها الاصيلة ، ويجعلها غير قابلة للتاويل القاطع ، النهائي . والقاريء ايضا ، اذ يجد نفسه قادرا على فهم احدى الشخصيات ، من خلال « موقف » ما ... يجد نفسه احيانا، عاجزا عن فهم هذه الشخصية بالذات . واذا كانت اكثرية الشخصيات التي عرضها مطاع من هذا النوع ، فان شخصيات « ثائر محترف » تجسد هذه الصفة اروع التجسيد. ان ايثارنا وتاويلنا لهذه الشخصيات قد يتعارض كليا او جزئيا مع ميول او تفكير قاريء اخر ، ولكن وجود مثل هذا التعارض ، امر طبيعي. الم يزل هاملت ، وشخصيات دوستويفسكي موضع خلاف الى اليوم ؟

ان المقال يعبر عن رأينا الادبي في الرواية ، ولكننا نخالف الكاتب في بعض ارائه القومية . ولقد اثرنا عدم التعرض لهذا الخلاف ، كي لا يتحول المقال من « رأي أدبي » الى مناقشة في السياسة ، اللهم الا حيث الامر . والذي شجعنا على ذلك ، ان هذا الخلاف في الرأي حول القضايا القومية ، لا يستدعي تغيير رأينا الادبي في الرواية .

*

قبل « ثائر محترف » نشر مطاع صفدي روايته الاولى « جيل القدر » والروايتان معا ، تؤرخان للجيل العربي المعاصر من الشباب ، وهو جيل قلق مهزوم ، يعاني ازمة البحث عن الذات . واكثر ما تتضح هزيمة هذا الجيل ، في تجربتين : التجربة القومية التي خرج منها بسلبية شبه تامة ، وقد فقد اهتمامه بالمصير . والتجربة الوجودية ، وتتميز بشعور القلق والتشتت ، والضجر والسأم . وهي سمات نفسية لهذا الجيل . وقد انعكس هذا الوضع على الادب ، فعبر الادباء الشباب عن ازمتهم ومأساتهم . ومن بين الادباء كافة ، ينهض مطاع صفدي كأقوى معبر عن ازمة الشباب العربي . ولقد سبق لمطاع ان طرح القضية العربية بعمق في مجموعته القصصية الاولى « اشباح ابطال » وفي مسرحيته « الاكلون لحومهم » ثم خطا خطوة اوسع بروايتيه المذكورتين. وفي راينا انه اول روائي عربي عرض قضية جيله بشمول كلي ، وبوجهيها : القومي والانساني . وهو لا يفصل بينهما ولا يعزل احدهما عن الاخر ، بل يتناولهما كمظهر لقضية واحدة ، هي قضية الانسان العربي الجديد .

ان «ثائر محترف » امتداد طبيعي لجيل القدر ، فهما تشكلان بذلك وحدة روائية تامة . ووحدة الروايتين لا تاتي من وحدة الحوادث او الاشخاص (فهما مختلفتان من هذه الناحية) بل من كونهما تعالجان مشكلة واحدة ، هي : الانبثاق الانساني في شخصية الفرد العربي . اي محاولة الفرد العربي ، الكشف عن المقومات الاخلاقية والقومية والفكرية لكيانه الانساني . فهي اذن مشكلة البحث عن وجهة نظر ، او مبدأ ، يمكن الارتكاز عليه كمنطلق فكري لفهم الوجود . وهي ايضا مشكلة البحث عن قيمة اخلاقية يمكن اعتبارها مقياسا واساسا للسلوك . ويتم هذا عند مطاع عن طريق موقف حاد يعترض الشخصية. وبمجابهة هذا الموقف تكشف الشخصية عن بنيتها الداخلية من جهة ، وتكتسب مقاييس جديدة بواسطة الفعل من جهة اخرى . ذلك ان الشخصية عند مطاع (كما لاحظنا من دراسة اثاره الادبية كافة) هي حصيلة بنيانها الفطري ، بتفاعله مع العالم الخارجي . فان الشخصية بذلك لا تكشف عن جوهرها الا بواسطة « موقف متأزم » . وبهذا يقف مطاع ، كمفكر ، موقفا متوسطا بين فلسفات الماهية والوجود.

والموقف المتأزم ، او المشكلة المطروحة دائما ، هي المشكلة القومية. والذي يدعو مطاع لذلك ، ان التجربة القومية اغنى التجارب الانسانية واكثرها لصوقا بالانسان ، لارتباطها الوثيق به ، كفرد قومي ، وكانسان. هذا بالاضافة الى ما تزخر به القضية القومية من ارث تراكم خلال قرون . وهو ارث املته طبيعة الامة والاعراف والتقليد . والفرد في « التجربة القومية » عليه ان يحدد موقفه ازاء هذا التعارض الحاد والتشابك الفخم من الاحداث .

ان تحديد الموقف ، اي الاختيار ، في تجربة كهذه ، هو ابعد ما يكون عن الاختيار السهل ، او العمل الذي يتم بصورة مألوفة لاثير اي احراج . انه اختيار حاسم يستلزم من الانسان ان يكشف عن تكوينه الشخصي ، ويختار مصيره بشكل نهائي .

ان المشكلة القومية التي تطرحها رواية « ثائر محترف » هي الثورة اللبنانية عام ١٩٥٨ ـ ولكن الرواية ليست تاريخا للثورة باعتبارها « وقائع » ، فالمؤلف لا يعنى كثيرا بذلك . بل يمكن القول بان الوقائع او الحوادث التفصيلية لاتشغل الا مساحة صغيرة من الرواية ، لان الكاتب يحول هذه الثورة الى جملة من المواقف .. تتفتح بواسطتهما الشخصية الانسانية وتاخذ ابعادها . وعن هذا الطريق يظهر لنا التحول العميق الذي يحياه الجيل العربي فالثورة بذلك تتخطى المفهوم السياسي ، لتصبح مجالا انسانيا لانارة العمق الذاتي للابطال .

« الرواية »

«كريم » ثائر قديم . شارك في الثورة الفلسطينية والجزائرية والثورات السورية لمكافحة الاستعمار الفرنسي . ثم شارك في مقاومة العهود الوطنية التي لم تمثل رغبات الشعب بعد الجلاء . وشهد الانقلابات السورية وقاوم عهود الطغيان . وشارك في توجيه التفكير السياسي في البلاد نحو الوحدة . لهذا كله اطلق عليه اسم « ثائر محترف » . فهو اذن محترف ثورات . ولكن الرواية لا تعطينا تفاصيل هذه الثورات التي خاضها ، بل تشير اليها مجرد اشارات . وفي الرواية نلتقي بكريم في بيروت ، وقد قصدها للاستجمام . ونتبين من سياق الاحداث انه يعاني مشكلة خاصة : فهو يود ان يعيد النظر في ماضيه الثوري ، ليناقش قيم الثورات السابقة التي

اشترك فيها . والغرض من ذلك ، الكشف عن جدوى حياته الشخصية ، وحياة الانسان الثوري عامة . وخلال فترة « اعادة النظر » تندلع الثورة اللبنانية ، وهكذا يجد نفسه في موقف ثوري يفرض عليه الاختيار . ولكن الاختيار الجديد يختلف كليا عن مواقف الاختيار التي كانت تدفعه للاشتراك في الثورات السابقة : فقد شارك فيها على انها (كما بدت له حينذاك) قدر طبيعي للجيل العربي . اما الان فقد تخطى هذه المرحلة واصبح في مرحلة « اعادة النظر » التي تعني : الاستقلال الكلي عن تأثير خارجي ، بغية الكشف عن الذات . ولما كان « كريم » قد قطع ، وبكثير من التعرية القاسية ، شوطا بعيدا في ميدان اعادة النظر ، فقد اصبح الاختيار الراهن بالنسبة له ، اشبه ما يكون بالعلة المزمنة والهم المقيم . ولكنه ، وبدلا من الاختيار المباشر ، يلجأ الى طريق اخر : ان انبثاق الثورة ، وما ينجم عنها من خلق مواقف ثورية لدى المشتركين فيها ، وهم نماذج جديدة من الثوريين الشباب ، سوف يعطيه مجالا يساعده على تشخيص معاني تجربته الماضية ، تحت ضوء تجربة راهنة مشابهة لتجربته تلك . وهكذا يتحول من البحث في الماضي ، الى معايشة حاضر من شانه اغناء تجربته بمعان جديدة ، بحيث تصبح مشكلة اعادة النظر التي يعانيها ، التحاما حقيقيا مع واقع ثوري حي . والمؤلف، انسجاما مع موقف البطل ، وهو اعادة النظر ، حرص على تقديمه في دور « الراوي » او المشاهد ، بحيث يلوح لنا انه راوية للاحداث فحسب ، حتى لتبدو الرواية وكانها خلت من شخصية رئيسية ، وانها تخضع لسلطان قوة خفية تحرك الاشخاص وترسم الاحداث . ولكن الواقع ان « كريم » يظل البطل الحقيقي للرواية .

ان موقف « اعادة النظر » الذي يلتزمه « كريم » خلال الرواية، ينعكس على العلاقات الانسانية بين الشخصيات وينفذ الى صميم انفعالاتهم ، حتى لتغدو هذه التسمية بمثابة العنوان الداخلي للرواية، والنافذة التي يطل من خلالها الكاتب على اعماق شخصياته . حيث نرى هذه الشخصيات كافة ، وقد تقاذفتها الافكار والرغبات ، بحيث لا نلمس لديها « تبنيا » حقيقيا مخلصا لاي موقف . لقد التزم «كريم» موقفه لتصفية الحساب مع نفسه ، فاذا بالموقف هذا يغدو بمثابة الفخ الذي يطبق على كل فرد اخر ، ويتحول بشكل شعوري او لا شعوري الا كابوس حياتي بالنسبة لكل فرد ، لوضعه امام اعمق تساؤل كان يفر منه ، وهو : من اكون ؟ ما جدوى عملي ؟ ما هي اسسه ؟ وبذلك يواجه كل فرد ازمته الخاصة بوضوح ، ولكن دون الوصول الى جواب يقيني مطلق ، حتى بالنسبة لكريم نفسه . وبذلك يكون مطاع قد جسد ، وباعنف الاثارة ، ازمة الشبيبة العربية في محاولتها الكشف عن كنه وجودها ، وتخبطها في هذه المحاولة ، وهو الواقع الذي تعيشه الشبيبة اليوم .

✶

قلنا بانه ليس من الحاح علني على شخصية من الشخصيات بقصد ابرازها ، ولكن المؤلف مع ذلك ، عرض شخصياته بطريقة تجعل من السهل علينا ان نكتشف اهمية ملحوظة لبعض هذه الشخصيات . وهنا تبرز لنا « زاره » كاحدى الشخصيات الهامة في الرواية :

تلوح لنا « زاره » منذ البداية غامضة الى حد بعيد . فهي محاطة بجو تصوفي الزمت نفسها به كل الالزام . كما انها فرضت على جسدها نوعا من القهر الارادي لتصونه من الدنس . ولكنها تسقط مع ذلك في النهاية . ومنذ تفتح وعيها في الدير ، وهي تشعر بتشوف للوصول الى يقين ما .. هو في صميمه بحث عن الذات . والاسطر القليلة التي تلخص نشأتها الطفولية في الدير ، ومن ثم سفرها الى فرنسا والهند، طلبا للمعرفة والتصوف ، لاتكفي لتفسير هذه الشخصية الكثيفة التي تفرض نفسها على القارىء ، بأعنف مما تفعل اية شخصية اخرى . بل ان هذه المعلومات ، هي اطر خارجية لها ، اكثر مما هي انارة داخلية . وهذا الطابع السري الخاص بها، يصبح بالتدريج ركنا اساسيا في البناء الروائي . وفيما يتعلق بنشأتها ، فهي ابنة لام هنغارية من اصل فجري . وكانت امها قد قدمت الى بيروت كراقصة ، حيث تزوجها الاب . والاب من الجبل اللبناني ، انحدر الى المدينة والتحق بعالم المال والتجارة والانحلال العائلي والاخلاقي ، فخسر بذلك جذوره الطبيعية . وقد ماتت الام منتحرة اثر نوبات نفسية . ونشأت « زاره » مع اختها في الدير ، واستجابت لهذا الجو الديني اعمق استجابة ، الامر الذي كان له بالغ الاثر في شخصيتها بحيث لم تستطع ان تتخلص منه فيما بعد . ولكن هذه العوامل الخارجية لاتشكل تبريرا للثغرة القائمة في شخصيتها ، والتي تتجلى بنوع من القصور عن التكيف : ان العجز المسبق في شخصية « زاره » يتجلى في عدم استطاعتها ان تستبدل شعورها بالغربة الروحية في العالم ، بأية علاقة انسانية او بأي تفكير عقلي . ولذلك لم تستطع ان ترتبط بأي مكان ، بل كان لها رغبة دائمة ، هي التجوال في العالم المكاني من جهة ، والانكفاء الى الاجواء الصوفية المغلقة من جهة ثانية .

ان « زاره » هي الشخصية الحية في الرواية ، التي تظل لها فرديتها ، والتي تسعى دائما للفوز بقدرها الخاص . ولكن انبثاق كريم في حياتها كان عامل اثارة شاملة ، فهو دعوة الى تخليها عن شخصيتها الغيبية الموهومة . والواقع ان العلاقة بين كريم وزاره ، تؤلف احد الاركان الاساسية للرواية ، رغم ان هذه العلاقة تجري بصورة مستورة خلال مختلف المواقف والاحداث . حيث يشعر القارىء من حوارهما ، بان بينهما من الصلات اكثر مما تعطيه الاحداث الروائية . اما متى حدث ذلك ... فهذا مالا تعطيه الرواية على الاطلاق .

ان كلا من كريم وزاره ، هو بمثابة « النقيض » للاخر : ان زاره تمثل العذراء التي ترتعب من كل دنس مادي ، لذلك تظل خارج التجربة دائما ، رغم وقوعها في براثنها مرة ! وهذا هو سبب ترددها المستمر لحالة العجز ، وعدم الاستطاعة التي تعانيها كلما كادت ان تنجح في اقامة علاقة واقعية مع رجل . اما كريم ، فهو يعيش في الملاهي الليلية بكل مافيها من تجارب ، ودون ضجيج وجداني . ورغم هذا التناقض الظاهري بين الموقفين ، فانهما يلتقيان في نقطة اساسية تتعلق بالوجود الانساني، هي : الرغبة في الكشف عن معنى : ان زاره تحاول ذلك خارج حدود التجربة ، عن طريق التأمل المعزول ، بينما يحاول ذلك كريم عن طريق المعاناة الحية ، وتعميق الاحداث والتجارب حتى القاع . واذا كانت نقطة الالتقاء الاولى بينهما هي : « الرغبة في ... » فان نقطة الالتقاء الثانية هي : « الخوف من ... »

وهذا الخوف بالنسبة لزاره ، خوف بدائي غريب من تلوث البراءة الانسانية . اما بالنسبة لكريم : فهو خوف من الوقوع في الانحلال .. الخوف من الاستسلام الكلي للتجربة ، بحيث تصبح هدفا بحد ذاتها لا وسيلة . أي : عدم القدرة على تخطيها والاستقلال عنها ، وبذلك يكون قد وقع في انحلال فعلي يتناول السلوك والفكر .

قلنا ان العلاقة بين كل من كريم وزاره ، كانت خفية طوال الدوامة، او انها تقبع في القاع العميق من الاحداث . والواقع ان تطور هذه العلاقة ، ظل يختمر في السر دون ايضاح علني ، وكل تطور كان ينمو في لا شعور كل منهما ، كما يحدث تماما في الحياة ، ولذلك لا تطلعنا الرواية على مراحل هذا النمو . اما رغبة زاره في كريم ، فانها تبلغ ذروتها وشكلها العلني ، خلال الزيارة التي قاما بها ، برفقة مهدي ، الى الراهب في الجبل . حيث يشعر كل منهما انه ضالة الاخر . ومع ذلك فان الالتقاء الحقيقي بين الاثنين لايحدث : لان « كريم » يرى من المحتم عليه ، الا يرتبط بشيء مادام في موقف « اعادة النظر » . عدا ذلك ، فهو مؤمن بان تحول زاره ليس اصيلا. وتدافع زاره عن اصالة هذا التحول ، ولكن الاحداث تثبت صدق حدس كريم ، ، ذلك انها عادت الى عزلتها النهائية في الدير . لان خيبتها مع كريم ، دفعتها ان تعطي جسدها لانسان ما.. ولمجرد انه رجل . وكان هذا الشخص احد ابطال الرواية ، وهو شاب عراقي اسمه « مهدي » . ومهدي كما ترسمه الرواية ، اقرب الى البدائية والتوحش الفطري . وربما ارادت بذلك ان تلتحم بجسد مليء بالغريزة الفجة ، منتقمة من كريم ، ذلك « الجسد » المغلف بانسانيته الخاصة ،

ذات الطعم الفكري والروحي .

لقد كانت مشكلة زاره ، البحث عن حقيقة الذات والوجود .واعلانا عن يأسها وخيبتها في هذا البحث ، عادت نهائيا الى الدير لتختـــم حياتها فيه .

*

اما « اليس » شقيقة زاره ، فقد كانت في حياتها على النقيض : لقد غمرت نفسها في الدور الذي احلتها له احوالها الطبيعية باعتبارهـا فتاة غنية فقدت رقابة عائلتها على تصرفاتها . لذلك تمتعت بكل مايمكـن ان تتمتع به فتاة جميلة غنية في المجتمع البيروتي الصاخب المترف .ومع هذا فان دورها اليومي الذي تؤديه ، يخفي وراءه دورا اعمق : ذلك انها تجاوزت كثيرا من المشكلات الوهمية التي تتخبط فيها فتيات هـــذا الجيل . ولقد قادها هذا التحلل المبكر من القيم الخارجية ، الى ممارسة حياة ادت بها الى السأم من اللذات ، ومن ثم الى التلذذ بهذا السأم حتى اصبحت حياتها رثاء دائما للقيم المفقودة . ويعمق هذا الرثاء ، حتى يصبح احتجاجا صارخا ضد الاخرين . ولكنها مع ذلك تجنح دائما الـى فرض شخصيتها على المجتمع الغارق في قيم المظاهر المادية السائدة في مجتمعها . ان « اليس » لاتود ان تلقى تبعة وجودها على احد ، وهـــي تعتقد انها تسير نحو اهدافها دون أي وهم . ومع ذلك فان لها غرورها الانثوي ، خاصة وانها تحسب انها قد حلت جميع المشكلات النفسية والاجتماعية التي مازال جيلها من الفتيات ضحية لها ، بحيث تشله عـــن معاناة الحياة الحقيقية . كما ان لها غرورها الخاص تلقاء اختها زاره التي عجزت حقا عن مواجهة مسؤولية الحرية الجسدية ، التي هي الطريق الوحيد لامتلاك المرأة وجودها ، ولشعورها بحريتها التامة ، حيث تصوف جسدها وتحرره من سلطة « الرجال » الاخرين الذين يعطونها قيمـــة مساوية لما فيها من شبق فحسب . ولكن « اليس » كانت ، وبصورة ضمنية ، تعتبر عجز أختها نوعا من التفوق عليها ، لذلك كان يلذ لها احيانا ان تعرض اختها لاغراء التجربة بين حين وحين . ويلذ لها ايضا ان تكون « شاهدة » على ازدواج شخصيتها وعلى نكوصها الاخير الى الدير : فهي تتابع حياة اختها لتضبطها متلبسة بأمرين يدنيان زاره ويبعثان الرضى في نفسها . اولهما : النكوص ازاء دعوة الحرية . والثاني : هو ان يكون نكوص زاره خضوعا لنوع من العجز الوجودي ، اكثر مما هو ارتباط وتعلق بمثل اعلى .

ان « اليس » وزمرتها من الشباب والفتيات ، قد تمثل بصـــورة واقعية حياة فئة كبيرة من الشباب الضائعين في بيروت ، والذين قـــد اختاروا الثورة السلبية التي تأخذ طابع التمرد ، كتعبير عن ضياع الانسان المعاصر . اذ ليس لدى هؤلاء الشباب أي هدف اجتماعي او قومي او انساني . وهم بالوقت ذاته ، يرفضون كذبة محيطهم التقليدي عندمـــا يزعم الارتباط بحضارات اخرى ، متبرئا من ارضه الخاصة . ولعل نموذج اليس وجماعتها يعطي التفسير الوجودي الحقيقي لمشكلة الجيل الضائع في العالم العربي عامة ، وبيروت خاصة .. وذلك بين ابناء طائفة معينة، ومن طبقات مترفة ، حيث يغرق افرادها في حفلات صاخبة تستباح فيها القيم ! هذه الحفلات التي بدأت تغزو المدن العربية الكبرى . وهـــي صورة تمردية ، كبديل عن الثورة الحقيقية التي هي قدر الجيل العربي(١)

ان هذه السلوكية ، هي نوع من التبني المذهول لحضارة غيـــر حضارتنا ، ولا يمكن لروائي عربي ان يغفل هذا الجانب من حياة الجيل، ان كان يريد تصويره في ازماته المختلفة .

*

الى جانب زاره واليس ، هناك « مادو » المرأة الاجنبية و « حنان» الفتاة العربية . وهما كبقية ابطال الرواية ، تواجهان القضية المطروحـة دائما : البحث الدائب عن الحقيقة والذات : الحب ـ العلاقات الانسانيـة ـ الخلق ـ الثورة . وهو بحث يمسك كل شخصية من الداخل ، ســـواء بصورة علنية مباشرة ، او بطريقة خفية غير مباشرة ، ولكنها تلمح خلال السلوك .

ان « مادو » كغيرها من الشخصيات ، رمز لافق حضاري وجودي واسع يكمن وراءها . وهي في رأينا اغنى رموز الرواية ، باستثنـــاء كريم . وقد اهتم المؤلف اهتماما واضحا ، حيث تعطيها لنا الرواية فـي جزئيات حياتها اليومية ، وفي علاقتها مع كريم و « مينو » زميلها الليلي في الملهى . بل ان المؤلف تقصى حياتها الماضية فأثار مساحة واسعـــة من ماضيها ، خلال طفولتها وفي بدء عملها الفني كراقصة باليه . ان مادو رمز لحضارة الغرب الملتقية بالشرق على شواطيء بيروت . حتى « كريم» يقف منها موقفا مغايرا لموقفه ازاء الفتيات الاخريات : ان « كريـم » الذي يتردد كثيرا في موقفه الصارم « اعادة النظر » تلقاء الاخريات ، لايعاني مثل هذا التردد في علاقته مع مادو . بل ان اسلوب الرواية الفني يعطينا عودات متكررة الى مادو خلال كل موقف حاسم في الرواية . فهو يعود اليها بعد كل التقاء مع زاره او اليس ، او الاخرين . وبالاضافة الى ذلك ، فاننا نرى «كريم» مع مادو ، مستسلما لطمأنينة لا اثر فيها لقلق خارجي .

لقد كانت مادو تعيش وكأنها امتلكت جسدها فعلا ، ونزهته عـــن الاوهام الغيبية التي تعتبره خطيئة ، واتجهت في مطلع حياتها الى رقص الباليه . وعندما خاب املها في تحقيق مثلها ، تحولت الى الملاهي الليلية حيث يصبح الرقص ابتذالا للمعنى وللجمال ، في الروح والجسد معا . ان مادو بذلك تمثل جيل الشباب الغربي الذي انتصر على اوهام وجوده وحاول ان يعيش حياة انسانية حرة ، منزهة عن الاكاذيب الاجتماعيـة والسياسية ، متجها بذلك الى تحقيق قيمة مطلقة للانسان . لذلك لـــم يبق امام الشاب الغربي سوى موقف فردي متأزم ، هو ان يصون كرامته وبراءته الذاتية في عالم هو ضد الانسان . ولقد جسدت ذلك مادو وهي منغمسة في الحياة الليلية في بلد عربي ، حيث تقاوم كل محاولات زبائن الملهى والاغنياء ، لشراء جسدها . وهذه المقاومة لها معنى اخر غيـــر

(١) هذا رأي صديقنا مطاع . ولكننا نخالفه الرأي . وسوف نعرض ذلك في مقال قادم قريب .

صدر حديثا

مع الإمام علي

من خلال «نهج البلاغة»

دراســة مســتفيضة عن عبقــرية الامام علي كسياسي وحكيــم من خــلال خطبه ورسائله التي يتضمنهــا كتابه الخالد « نهج البلاغة »

تأليـــف

خليل الهنداوي

منشورات
دار الاداب

مباشر ، هو ، ادانة طبقة عربية كبيرة ، طبقة كان همها الـوحيد ، ولا يزال ، البحث عن اللذات المحرمة او الممنوعة في بعض مفاهيم الوجدان العربي . وهي لذات فقدت كل قيمتها الانسانية واصبحت لاتفصح الا عن موقف حيواني صرف . لذلك فان رفض مادو لتجارة الرقيق الابيض، وخوفها من الوقوع ضحية لهذه التجارة ، هو رفض لامتهان الجسد بهذا الشكل اللاانساني . انه يشير الى الفارق الواسع بين موقف الحضارة الغربية من قيمة الجسد والجنس ، وبين الشبق المستور المتفجر عـن كبت ساحق ، خلال تاريخ طويل لدى الجيل العربي .

ذلك ان وهم المثل الاعلى لدى هذا الجيل ، مازال يبعده عن الاعتراف بدور الجنس ، وبكونه امتدادا طبيعيا وتتويجا للعلاقات الانسانية بـين الرجل والمرأة . فانصرف ، نتيجة لذلك ، لاختلاس لذته الجنسية بأسوأ الاحوال والاساليب ، الامر الذي قاده الى ازدواجية مريضة في سلوكه الفردي .

ان تعرف مادو بكريم ، جاء في اللحظة الفاصلة وهي على حافة يأسها ازاء ضغط الواقع الجنسي البهيمي لزبائن الليل . في لحظة اوشكـت ان تتخلى فيها عن طهرها الفردي ، وتستسلم لاي عابر . ان حالة مادو هذه ، تعتبر جزءا اساسيا من مشكلة كريم ، وهي ان يلتقي بامرأة تفخر بجسدها ولا تذل به . لذلك رفض دعوتها في الليلة الاولى وهذا مامهد بعد ذلك الى قيام علاقة صميمية بينهما . لان « كريم » كان يعتبرها مالكة لحريتها في بؤرة الفساد واللاحرية ، وهذا مادفعه لان يلجأ اليها اثـر كل موقف يخيب فيه ، في قشع حجب الكذب والاوهام لدى الفتيات الاخريات ، خاصة « حنان » تلك الفتاة التي استبدلت ثورتها الحقيقية بتحرر خارجي مصطنع . والواقع ان مادو من جهة وحنان وزاره من جهة ثانية ، يلعبن قطبي الازمة في قضية الجنس كما تطرحها حضارة الشرق والغرب :

مادو تمثل حريد الجسد في قلب الفساد والقذارة والانحلال . امـا زاره فانها تمثل سحر الوهم الاثير على بعض قيم الحضارة العربية التي تربط الشرف بالجنس ، وتدفع الفرد العربي ، والمرأة خاصة ، للانكفاء على الذات وقهر الجسد . بينما تمثل حنان ، الجيل العربي في ازدواجـه المتمزق المريض : الانغماس العلني السطحي في الثورة العامة ، والخـوف من مواجهة الثورة الحقيقية في اعماق النفس والفكر .

ان « ثائر محترف » تعبر عن هذه الاتجاهات ، لترسم لنا صـورة واضحة لواقع الجيل العربي : فعندما يخيب في تجربة الانفصال عن محيطه لكشف اوهام وجوده ، فانه يسير في طريقين : ١ ـ انحلال السلوك ، مقلدا بذلك الغربي في سلوكه الظاهري . ٢ ـ او الارتداد الى حجـب الوهم والعادات والتقاليد المتوارثة .

تلك هي الشخصيات النسائية في الرواية ، وسوف نتابع بعـض شخصيات الرجال :

« سمير » احد اشخاص الرواية الذين لهم اهمية ملحوظة بالنسبة للاخرين . نراه يبحث عن اصالته ومعنى وجوده بين مختلف الاهداف الفردية ، وذلك قبل ان يشترك في الثورة التي يجد فيها نوعا من الوجود المبرر ذي الاتجاه البطولي . انه يود ان يكون شيئا ما ، ان يثبت فردية من نوع خاص ، وهو المطمح الذي يلاحق كثيرا من الشباب ابان تفتحهم على الحياة . والحب ، هو المحور الذي تدور حوله هموم الشباب وخيالاتهم عندما يكونون بدون اهداف ، من اجل تحقيق الاهمية الشخصية واثبات الوجود . وهكذا نجد « سمير » يتحدث منذ الصفحة الاولى في الرواية عن حبه لاحدى زميلاته .

واذا رجعنا الى ماكتبه الاستاذ الصفدي في مؤلفه الفكري « الثوري والثوري العربي » عند تحليله للانسان الثوري ، وجدنا انه يعطي ثوريـة المراهق دورا هاما باعتبارها تؤلف القاعدة الاولى لكل ثورية قوميـة او اجتماعية او فكرية ، الامر الذي ينطبق على سمير ذلك الانسان المنكفيء على ذاته والباحث عن معنى في تنقله بين الكتب او شغفه بالموسيقى او في محاولته تعلم العزف على البيانو او في حماسته لدراسة الماركسية .

اننا نلمح في هذه المحاولات شخصية ظامئة للتكون ، تتوق لتحقيق شـيء ما ، يعين هوية الشخصية ويحدد ابعادها . وحتى عندما يشترك فـي الثورة ، نكتشف انه لايستطيع ان يطمئن الى انه عثر على هدفه . انـه يقول لكريم :

« بودي لو اعلم نهاية كل هذا . لاتنظر الي هكذا .. انا لست بطلا على كل حال . لقد وجدت نفسي فجاة وسط كل شيء . قل لي، صارحني . نحن نستطيع ان نبرر الثورة ككل ، فنجد لها اسبابها وعللها، ولكن لماذا أثور انا وانت وكل اخر ؟ هناك مبررات عامة لاشك فيها ، غير انني اريد ان اعرف انا لماذا حقا اثور . لماذا لا احس ، لا احس باعماقي انني ثوري ، ثوري حقيقي » .

« أصغ الي ياكريم ، انا لا اعرف كيف اقتل ، لقد سرت الليالي الطوال على دروب الاسفلت وانا افكر ، افكر كيف اتخلص . كنت ابحث عن ثمة خلاص حالي . لم يكن الحب هو مشكلتي ، رغم انني عجزت عن لمس اية امراة »

من هذه الفقرات نلاحظ عنصرا رئيسيا من عناصر مشكلة سمير . الشعور بفراغ وجوده ، والرغبة في معرفة الذات : اريد ان اعرف لماذا حقا أثور ! ولا تخرج الشخصيات الاخرى عن ذلك :

غياث ـ الاخ الاول لسمير ، يريد ان يثور ويحطم التقاليد . ولكـن ثورته لا تتعدى محاولة الزواج من فتاة مسيحية . بينما فؤاد ، الاخ الثاني ، مشغول بتحليل النفوس واكتشاف الامراض .

تعقيب :

القاع الذي بنيت عليه الرواية ،هو القضية القومية للمجتمع العربي. وعن هذا الطريق عرض لنا مطاع مشاكل الجيل العربي من الشباب : القومية والاجتماعية والفردية . وقد كان ناجحا الى درجة كبيرة في هذا العرض . ولكن مشكلة الشبيبة العربية ـ في رأيي ـ هي ، وبالدرجـة الاولى : مشكلة وجودية . أي التساؤل الملح عن معنى الوجود ، ومن ثـم البحث عن الذات ، (من اكون ؟) وتحقيق هذه الذات « ماجـدوى عملي ؟ » .

انّ تحقيق الذات وترسيخ جذورها في الوجود ، هو الهم الدائـم لهذه الشبيبة ، لذلك فان انغمارها في القضايا القومية ، واخلاصهـا العنيف لها ، هو وسيلة اكثر مما هو هدف . انه وسيلة لربط الذات بقضية كبرى تسمو على المشاكل اليومية التافهة ، خلاصا من التجوف الداخلي ومن حس التفه ، بغية ارتكاز الشخصية على ارض صلبة ،ولاعطاء معنى للوجود . واذن ، فالازمة الحقيقية هي : النزوع الدائب لربـط الشخصية بعلاقات انسانية صميمة ، ولربطها بقضية يمكن للفرد العربي ان يطمئن على انها هدف له . ولما كانت القضية القومية بالنسبة للمجتمع العربي ، أكثر القضايا شمولا واهمية ، فقد اتجه لها جيل الشباب ، ليرتفع بنفسه الى هذا المستوى الوجودي العظيم ، على الصعيد القومي، وتلك هي مشكلة شخصيات الرواية ، خاصة الشخصية الرئيسية « كريم»

ان المؤلف ـ سواء فعل ذلك بصورة شعورية او لا شعورية ـ اعطى امتيازا ملحوظا الى « كريم » فهو يحتل المساحة الكبرى من الروايـة، وهو القطب الذي تدور حوله الشخصيات والاحداث : من الناحية القومية والشخصية على حد سواء . فالشخصيات كافة ، تسير بوحي منه ، ظاهر او خفي . او ـ على الاقل ـ هو الذي يؤول سلوكها وتفكيرها حسـب هواه . هذه ناحية ـ اما الناحية الثانية ، فتظهر لنا في الشخصيات النسائية ، حيث نرى انها تقف موقفا ايجابيا منه ، وله علاقة بهن دون استثناء . وهذا امر له مغزاه الواضح من حيث مشكلة تحقيق الذات .

الشخصية الوحيدة التي تقف موقف المعارض او الند ، لكريم ، شخصية الاستاذ « بول » ولكن المؤلف لم يظهر لنا هذه الشخصية بالقدر الكافي ، بحيث تقف بصورة فعلية موقف الند الحقيقي من كريم . فهـو لم يخصص لها سوى صفحات ضئيلة من الرواية ، كما انها لم تلتق بكريم الا في موقف .. أنهاه المؤلف بسرعة ، وكانت الغلبة فيه ، ضمنا ، لكريم.

اما من الناحية القومية ، فهو محترف ثورات ! أي له ماض قومي عريق ، والجميع يرجعون اليه ويستمدون الراي منه ، حتى ليبدو وكأنه قائد قومي للجميع .

كل هذا يسمح لنا بتاكيد رأينا السابق ، بان مشكلة الشبيبة العربية مشكلة وجودية : انها مشكلة الشعور بالاهمية الفردية وتحقيق الذات .

« الرواية ، كعمل فني »

من عادة الكتاب ، المحافظة على وحدة الرواية : تسلسل الزمان والاحداث . ولم يخرج الكتاب على هذه القاعدة الا منذ عهد قريب ، وعند نفر قليل . حيث عدلوا عن العمل العقلي في ترتيب الرواية ، الى الفعالية الطبيعية للشعور . وكان من جراء ذلك ، تبدل مفهوم الزمان، الذي استتبع بالضرورة تبدل عرض الاحداث : ان حوادث الحياة « تقع» ضمن التسلسل الزماني المعروف ، المحدد بالتواريخ والارقام ، ولكن عندما يتخيل الانسان هذه الحوادث ، فانه لايتبع نفس التسلسل الذي وقعت فيه . فهو ينتقل من حادث لاخر دون التقيد بزمان الحدوث ، وهذا ماقصدناه بقولنا : الفعالية الطبيعية للشعور . وقد اعتمدت الرواية المعاصرة هذا الاسلوب في عرض الحوادث ، فهي ، بدلا من ترتيب الحوادث حسب الواقع ، عمدت الى مطابقتها مع الخيال . وهو الاسلوب الذي اتبعه مطاع في « ثائر محترف » .

والخطر في هذا الاسلوب ، ان يستسلم الكاتب نهائيا لفعالية الخيال الحرة ، فتصبح الرواية مليئة بالفجوات التي تجعلها اشبه بالخواطر . ولقد كان مطاع بنجوة من الوقوع في هذا المزلق ، فهذا الانتقال الذي نلمسه في الرواية ، من حادث لاخر ، ثم العودة الى حادث اخر ، أقول : ان هذه الانتقالات المتكررة عبر الحوادث ، كان فيها من البراعة ، بحيث لم نلمس اية فجوة في الرواية . وهذا يدل على تمكن اصيل في العمل الروائي .

ولكن الميزة الكبرى لمطاع ، قدرته الخارقة على وصف المكان ـ وهي ميزة لم نجدها ابدا عند كاتب اخر : عربي او اجنبي . فعندما يصف مكانا ما .. فانه يخلع عليه ظلا انسانيا ، حتى ليبدو لنا هذا المكان وكأنه « حي » فعلا :

« كانت جميع المخازن التجارية مغلقة ، والوحشة في الشوارع تتصاعد من وجوم الاحجار ، واصفرار الابنية وجمود النوافذ المغلقة . وكانت بيروت بدون خضرة .. لم تعرف شوارعها زينة الاشجار . ولا حوت كتلها البشرية على بقع من حدائق . وكانت بيروت بعد الظهر من ذلك اليوم .. مكدسة بدون تنفس ، وقد بدأ كل حجر بالريبة من حجر يلتصق به منذ الازل . ومن قلب هذا التكديس ، كانت تفجرات بركانية صماء تمزق وحدة الصخر والتراب والانسان . وكنت وحدي اصغي الى الدوي المكبوت . وانظر الى الوجوه النظيفة حولي ، فلا ارى فيها الا وجها عالميا ينتمي الى كل مكان ماعدا المكان الذي تتمزق فيه هذه التفجرات الدفينة » .

*

من الملاحظ اننا لم نتعرض بشيء الى مآخذ الرواية ، والسبب في ذلك ، انها مآخذ يسيرة لاتشكل تجريحا فعليا للرواية ، ولا تنتقص من قيمتها الحقيقية . فالرواية تحتفظ بقيمتها .. بكونها تؤرخ للجيل العربي المعاصر ، وتصوره في مشكلاته الوجودية والقومية والاجتماعية على السواء . وهي ، فوق ذلك ، عمل فني قارب جدود الكمال .

دمشق — محمد حيدر

صليب الآب

ما زال قرص « برسيوس » ابلها يحزّ في أوردة السماء
تقذفه الحرباء تعفر الرماد تشعل الصفا بلا ضياء
وجيشها الاورد لا يستطيع ان يلوك غير القفر والهباء
تصفر في عروقه وصلبه تنز من عيونه الدماء
يخاف من سلاحف الطريق . يحتمي بنا يلهج بالدعاء
سلاحف التاريخ في الوصول تهذي،تنفري،وتلعن القضاء
لما انبرينا نرتقي « جلجلة » ونقهر الغيلان والبغاء
بحت:مضوا ليصلبوا الاب،ارجموهم مزقوهم،امطروا بلاء
ايصلب الاب الذين قدموا ضلوعهم لمجده عطاء ؟؟
وفجروا عيونهم مناهلا للجيل ـ نسل الصمت ـ للظماء
.. ويسرع الركب يشك الحوت يطلي السن الجردان بالفراء
يقتنص العاج من الافات (من اشداقها) ويسلخ الفراء
بينا تئن عصبة الحرباء ، تكبو ، تشرب القطران والوباء
تنفل في عيونها الديدان.. تنخر الحياه.. تسفح الصفاء
وتضحك السلاحف العجفاء: ـ هاركب صليب الاب في الفناء
دارت رحاه تطحن اللاشيء امس فانطفا .. لا كنز لا علاء
ـ : ما مات من تحجرت سفينه وصدت الصخور والهواء
قد عاد يحيي الجيل،يدعو الرفض ان يحرر النجوم والسناء
يرك تل المغنطس الصائد السفائن الكثار توتياء
لن يجذب المسمار من قعر السفين اليوم،لن ينبنحب الغطاء

حمص — أحمد دحبور

---

١ ـ كان برسيوس يقصد ـ عندما قذف القرص ـ ان يظهر براعته وقوته . لكن القرص اصاب جده فقتله